من صور القرن الثامن عشر

جاكومو كازانوڤا

مواثب مجتمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن الثامن عشر فى أوربا عصر الخفاء والدعوات السرية ، والثورات الفكرية والاجتماعية ؛ وكان أيضاً عصر المغامرات الشائقة ، والحياة المرسلة الناعمة ، والعيش الخفض ، وازدراء التبعات ، عصر المرح والطرب الميسور

وليس معنى ذلك أن القرن الثامن عشر كان عصراً ذهبياً يزهو فيه المجتمع ويزدهر ؛ فقد كان فى الواقع عصر الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتوالية ؛ ولكنه كان عصر تطور فكرى عميق يبلغ المجتمع فيه ذروة أزمته الروحية والنفسية ، ويصل الى نوع من اليأس والاستهتار ، ويلتمس فى حياة النسيان والعيش المرح عزاء ومتنفساً

وقد تناولنا فى مقال سابق شخصية من أعجب شخصيات هذا القرن وداعية من أغرب دعاته ، ونعنى يعقوب فرنك أو البارون فون أوفنباخ[1] ورأينا كيف كان القرن الثامن عشر مهبط الدعاة والمغامرين من كل ضرب ، وكيف كان الخفاء يغمرهم ويثير من حولهم كثيراً من الدهشة والروع ، وكيف كان أولئك الدعاة المغامرون يخلبون ألباب مجتمعات هذا العصر بروائع شخصياتهم ومظاهرهم ، وظرف خلالهم وشمائلهم ، وسحر مزاعمهم وأقوالهم ، وخفاء غاياتهم ووسائلهم

والآن نتناول شخصية أخرى من أعجب شخصيات هذا القرن أيضاً ، ولكن من طراز آخر ، هى شخصية جاكومو كازانوڤا

كازانوڤا : مغامر جرىء يخلق لنفسه من العدم شخصية باهرة ، ويدخل الحياة من باب ذهبى ، ويستقبلها بابتسامة خالدة ؛ ويقتحم المجتمع الرفيع بذكائه ودهائه وخبثه ، وظرف خلاله وشمائله ؛ ويرتفع فى ميدان المغامرة الى الذروة ، ويهبط الى الدرك الأسفل ؛ ويستمرىء أمتع المسرات والملاذ ، كما يتذوق أمر ضروب السقوط والفاقة ؛ وينحدر من فتوة باهرة ظافرة برفاهة العيش الساطع المرح ، الى كهولة حافلة بصنوف الخيبة واليأس ، ثم الى شيخوخة مظلمة مغمورة بائسة ، ثم الى عالم العدم فى قبر ناء مجهول

لم يكن كازانوڤا شخصية عظيمة تجدر بالخلود فى صحف التاريخ ؛ ولكنه كان شخصية من نوع خاص تنحرف بطرافتها وغريب أطوارها عن سلك المجتمع الوديع الهادىء ، ولكن تنفث فى نفس الوقت بقوتها واضطرام خلالها أينما حلت فى جوانب هذا المجتمع كثيراً من الفضول والسحر ، وتغزو عرحها وأناقتها قلوب أولئك الذين يعبدون الجمال والظرف مهما اتخذوا من أثواب خلابة طائرة ؛ وقد كان كازانوڤا يتشح بأثواب خلابة طائرة ، ولكن مؤثرة ساحرة ، ولم يكن يهمه فى الحياة سوى النجاح مهما كان خلباً ، والظفر بتحقيق أهوائه مهما كانت ومهما كانت الوسائل والصور ؛ وقد ترك لنا فوق ذلك من حياته الغريبة الحافلة مذكرات طلية شائقة ما زالت تعتبر الى يومنا تحفة ادبية فنية لها قيمتها ولها سحرها

ولهذا يظفر كازانوڤا من التاريخ بالذكر والتدوين ، وتغدو سيرته العجيبة سجلاً حافلاً لخلال عصره ، وتغدو موضوعاً ومستقى لأقلام بارعة تخرج عنها المؤلفات الحافلة

* * *

ولد جاكومو كازانوڤا فى الثانى من شهر أبريل سنة ١٧٢٥ بمدينة البندقية ؛ وكان أبوه جايتانو ممثلاً متواضعاً أتى به الى البندقية والى المسرح قدر غريب ، ذلك أنه هام فى صباه بممثلة حسناء تدعى لافراجولينا ، وترك من أجلها أسرته وموطنه بارما ، واحترف الرقص والتمثيل ؛ ثم فترهواها بعد ذلك وتركته الممثلة لتجرى وراء مغامرات أخرى ، فاستقى من بعدها حرفته ، والتحق للعمل بأحد مسارح البندقية ؛ وكان يقيم فى المنزل المواجه لمسكنه صانع أحذية يدعى فاروزى وزوجته مارسيا وابنتهما الحسناء چوزفاما أو زانيتا ، فنشأت بين جايتانو وزانيتا

[1] راجع العدد ١٤١ من الرسالة

علاء ، ثم فر العاشقان ذات يوم وعقدا زواجهما في سنة ١٧٢٤ ، وبعد عام ولد ابنهما جاكومو

ولم تلبث زانيتا أن حملها تيار المسرح ، فظهرت الى جانب زوجها ، وانفق الزوجان بضعة أعوام في التجول من مدينة الى أخرى ومن مسرح الى آخر ؛ ثم أصيب الزوج أثناء وجودهما بالبندقية بمرض خطير أودى بحياته في أواخر سنة ١٧٣٣

وكان جايتانو كازانوفا فتى وديعا حسن الخلال ، يؤثر الانزواء والعزلة ؛ أما زانيتا فقد كانت بالعكس فتاة ذكية ماكرة مضطرمة النفس والأهواء ؛ وكانت ممثلة بارعة تتمتع بكثير من الظرف والسحر ؛ وكانت دائمة التجول في عواصم القارة ، من لندن الى بطرسبرج ، تحرز النجاح والظفر أينما حلت ؛ وكان مستقرها الأخير في مدينة درسدن حيث عينها مختار سكسونية ممثلة مدى الحياة ، وهنالك أنفقت بقية حياتها حتى توفيت سنة ١٧٧٦

وكانت زانيتا قد رزقت غير جاكومو بثلاثة أبناء آخرين وابنتين ، وتركتهم جميعاً بالبندقية لدى والدتها مارسيا فاروزى ؛ وكانت مارسيا امرأة بسيطة جاهلة ولكن ذكية مخلصة ، فكرست كل نشاطها وعنايتها لتربية أحفادها ولاسيما كبيرهم جاكومو ؛ ويشير كازانوفا في مذكراته إلى ذلك الحرمان من عطف أبويه ، ويقول لنا إنهما لم يكلماه قط ، ويشير أيضاً الى عطف جدته ورعايتها ويقول لنا إنه كان طوال حياته يذكرها بالحب والعرفان والاجلال

ونشأ جاكومو ضعيفاً سقيما ، ولكن تبدو عليه أمارات الذكاء والنجابة ؛ وكان للأسرة صديق من أعيان المدينة يدعى جورجو بافو ، فاهتم بأمر الصبي العليل ؛ وكان بافو جوادا طيب القلب ، ولكن فاسد الخلال والسيرة ؛ وكان شاعرا ، ولكن شعره يفيض تهتكا وفجورا ؛ فنصح بإرسال الصبي الى بادوا ليتعلم في معاهدها ويستفيد من هوائها ؛ وكانت زانيتا والدة جاكومو يومئذ في البندقية ، فنزلت عند هذا النصح ، وحملت جاكومو الى بادوا ، ورتبت مقامه هنالك ؛ وأقام جاكومو مدى حين عند امرأة سلافية ، ولكنه ما لبث أن عاف المكث لديها لسوء المعاملة ورداءة المسكن والطعام ، ثم نقل على أثر ذلك الى منزل معلمه الأب جوزي ، فارتاحت نفسه لمقامه الجديد ، وأقام لدى أستاذه منعما مكرما

وقضى كازانوفا بضعة أعوام عند معلمه ، ودرس قليلا من اللاتينية واليونانية والنحو . وكان تقدمه سريعاً حتى أن الأب جوزي ما لبث أن اختاره لمعاونته في التدريس ؛ وكان كازانوفا قد ناهز يومئذ الخامسة عشرة ، وأخذت تبدو عليه أمارات الاضطرام الكامنة في جوانحه والتي ورثها عن والديه ، فبدأ يقرأ الكتب المثيرة ، ويزعج معلمه بمختلف الأسئلة المحرجة ، ويحدث أخت معلمه بتينا — وهي فتاة في نحو العشرين من عمرها — بنظرات ملتهبة . ولما انتهت دراسته الابتدائية ، دخل مدرسة الحقوق في جامعة بادوا الشهيرة ، وأطلق لنفسه عنان الحرية وأخذ يغشى دور اللهو والميسر ، فانزعج معلمه ، وانزعجت جدته وبادرت إلى بادوا وصحبته معها إلى البندقية ، وهنالك استأنف دراسته

وفي البندقية تفتحت غرائزه وأهواؤه ، وانكب على صنوف اللهو ؛ ولكنه مع ذلك كان يتذوق دراسته وحياته العلمية ، وكان ذلك الفتى اليافع الذي يضطرم ظمأ إلى اللهو والمرح ، يضطرم في نفس الوقت ظمأ إلى العرفان والدرس ؛ وكان في الثامنة عشرة يأخذ بقسط حسن من الأدب والفلسفة والمبادئ العلمية ، ولم يكن خلال عبثه ولهوه ليغضي عن التفكير في مستقبله ؛ فلم يمض سوى قليل على عوده إلى البندقية حتى استطاع أن ينتظم في سلك رجال الدين وأن يحصل على وظيفة دينية صغيرة . أجل استهل كازانوفا حياته العملية قساً ، وهو الذي خاض فيما بعد غماراً من اللهو والفجور قلما يخوضها بشر ! ولم يكن ذلك منه ورعاً أو رغبة في خدمة الدين ، ولكن الانضواء تحت لواء الكنيسة كان يومئذ وسيلة فريدة لأبناء الشعب الذين يطمحون الى مستقبل ما ؛ وكان ذلك المنصب المتواضع الذي لا يحتم عليه الارتباط بعهد الكنيسة ، يفتح له كثيراً من الأبواب المغلقة ، ويحقق له كثيراً من المزايا التي تعاونه على التقدم في سبيل الحياة

ولم يمض سوى قليل حتى استطاع كازانوفا أن يجوز إلى المجتمع الرفيع وأن يتعرف بكثير من الكبراء والنبلاء ؛ وكان بين هؤلاء ، غير صديقه وحاميه القديم بافو ، سيد يدعى ماليبرو وهو شيخ سابق ، وثرى منعم ، يعيش في قصر فخم ، ويجمع حوله جمهرة من الخلان الظرفاء ، يتسامرون ويتحدثون عن اللهو

لنساء والحب ، كما يتحدثون عن السياسة والمسرح ؛ وأنى يرو فى القس الفتى رفيقاً مؤنساً فاصطفاه واتخذه سميره وخدنه وممعاونه على تنظيم حفلاته الأنيقة ؛ وكان كازانوفا فى الواقع يتمتع فى هذا الميدان بكثير من حسن الذوق والشمائل الرقيقة ، يقدم لخدمة السيدات برشاقة ويخلب ألبابهن بظرفه ، ويسبغ ركاته وأحاديثه على الحفل كله مسحة من البهجة والرواء

وكانت البندقية يومئذ ـ فى منتصف القرن الثامن عشر ـ نزل اللهو والمرح ، تموج فى الليل بالمسارح ودور اللهو ، وتغمرها بة ساطعة من بهائها السابق ؛ وكان الحب يرفرف على أرجائها وتنساب القوارب النحيلة [1] فى شوارعها المائية تحمل أزواج لمحبين تحت جنح الظلام وأضواء القمر ، وتقرع كؤوس الهوى فى كل ناحية ، ويسود الحبور والبهجة ؛ وكان كازانوفا يخوض هذه التيار المرحة سعيدا منعماً ، ويستمرئ هذه المناظر البديعة التى تقدمها إليه المدينة التالدة ، فى ظل الرعاية التى يشمله بها صديقه وحاميه السيد ماليبرو

بيد أنه لم يلبث أن فقد هذه الرعاية . ذلك أنه كان للسيد ماليبرو صاحبة فتية حسناء تدعى تيريز ، وكان كازانوفا يرنو إليها ويحوم حولها ، ففى ذات يوم استطاع أن ينفرد بها فى أحد المخادع ، وبينا هو بينها جواه ، إذ فاجأهما ماليبرو فانهال عليه ضرباً بعصاه ، وطرده من منزله شر طرد ، وفقد كازانوفا بذلك أكبر عضد ، وأقصى عن ذلك المجتمع الساطع الذى كان يغشاه ؛ وتولته على أثر ذلك نوبة من اليأس والكمد ؛ وكانت جدته قد توفيت قبل ذلك بقليل ، فأخذ يتصرف فى مقتنيات المنزل ويبددها ، واضطر الوصى على اخوته إلى التدخل ، ووصل الأمر إلى القضاء فقبض عليه وأودع السجن ؛ وفقد أثناء ذلك منصبه الدينى وأخرج من حظيرة الكنيسة ؛ ولما أطلق سراحه بعد ذلك بقليل ، شعر أن البندقية تضيق به وبعشاريمه وأنه لم يبق له فيها أمل أو مقام

وكانت أمه قد كتبت إليه توصيه بالسفر إلى أسقف كالابريا فهو صديق لها وفى وسعه أن يعاونه وأن يوصى به ؛ فعول عندئذ على السفر إلى رومه ، ولكن الأسقف كان قد غادرها إلى مقر وظيفته فى الجنوب ؛ وكانت نقوده القليلة قد نفدت ، وساءت حاله ، واضطر أن يلتمس العيش بأخس الوسائل ؛ وتعرف أثناء الطريق بتاجر يونانى يتاجر فى الزئبق ، واتفق معه على طريقة لغش الزئبق وتحصيل ثمنه مضاعفاً ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يكسب قدراً من المال ؛ ووصل أخيراً إلى مارتيرانو مقر الأسقف ، ولكنه شعر بآماله تتحطم حينما رأى حالة الأسقف الزرية من منزل فقير متهدم ، وبؤس ظاهر ، وعزلة قاتلة ؛ فارتد أدراجه إلى نابولى ومعه بقية من المال ؛ وهنالك بسم له الحظ ، وقضى بضعة أيام سعيدة ، تعرف خلالها بامرأة حسناء تدعى لوكريزيا وتوثقت علائقه معها بسرعة ، وكانت فى الواقع أول صاحبة حقيقية خضعت لسلطان هواه

ثم نراه بعد ذلك فى رومه يطرق الأبواب ويحاول أن يشق طريقه ؛ وقد كان عندئذ موفقاً إذ استطاع أن يلتحق بوظيفة فى حاشية الكردينال أكوافيفا ؛ وقضى حيناً فى رومه يستزيد من الدرس وينعم بصحبة لوكريزيا ، ويهيء لنفسه جواً من الرعاية والعطف بذكائه وذلاقته ورقة شمائله

على أن هذه الحياة الهادئة المستقرة لم تكن لتروق فتى مضطرم الجوانح مثل كازانوفا ، فقد كانت نفسه الوثابة الظمأى إلى المغامرة تحمله إلى آفاق أخرى ؛ وكان شبح المرأة يثيره ويلهبه أينما وجد ؛ وسرعان ما لفت الأنظار بفضائحه ودسائسه الغرامية وتفاقم الأمر حينما اتهم بإغراء سيدة تمت إلى بعض الأحبار بصلات وثيقة ؛ ففقد وظيفته ومركزه مرة أخرى ، ورأى نفسه مرغماً على مغادرة رومه فغادرها إلى قسطنطينية يحدوه دائماً ظمأ المغامرة وتدفعه طلعة التجول

ثم عاد إلى البندقية ولكن عاد إليها فى ثياب ضابط . ذلك أنه مر فى طريقه بالمعسكرات النمسوية والأسبانية ، وحصل على ترخيص بالانتظام فى سلك الجيش ، وقدر أنه يستطيع أن يخلق له فى ظل هذا الثوب حياة جديدة ، ولكنه لم يحرز ترقية نظراً لسوء سلوكه ، فخلع ثوبه العسكرى واشتغل مدى حين كاتباً فى مكتب محام ، ولكنه لم يكن طويلا إلى هذا المنصب الوضيع ؛ وأخيرا ذكر أنه يستطيع العزف على القيثارة منذ كان صبياً

---
(١) هى القوارب المعروفة بالجوندولا وهى وسيلة النقل الوحيدة داخل المدينة